العرب
الجمعة 2019/08/30
السنة 42 العدد 11452

مروان علي: لا جدوى من الكتابة في عالم يمضي بسرعة نحو الخراب

الشاعر يكتب لأنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء آخر

أكتب عن سوريا لأنها الوطن الأخير لي

خط الشاعر والكاتب الكردي السوري مروان علي تجربة مختلفة في عالم الأدب، خاصة في ما كتبه ويكتبه من نصوص شعرية أخيرة، اختارت لها قصيدة النثر شكلا وروح الأمكنة المفقودة، حيث يميل إلى استرجاع ماض بعيد لأمكنة وأناس مهمشين معيدا إياهم إلى دائرة الضوء. "العرب" التقت الشاعر في حوار حول تجربته الشعرية ونصوصه الأخيرة.

خلود الفلاح
كاتبة ليبية

ينطلق مروان علي في حديثه لـ"العرب" من مسألة طقوس لحظة الكتابة، يقول "دعيني أخبرك بأني عملت طوال حياتي في مهن كثيرة أسميها 'مهن القسوة'؛ عتال في صوامع الحبوب، سائق جرار زراعي، سائق دراجة نارية، عامل في مطعم، مساعد بائع في سوق المواشي، بائع للكتب المدرسية المستعملة، عاطل عن العمل في شوارع قدوربيك، ومهن كثيرة أخرى. تعلمت الكتابة من الحياة والمهمشين في المدن والقرى الكردية في الجزيرة السورية لذلك لا طقوس لدي عند الكتابة. أستطيع الكتابة في أي مكان؛ في البيت والشارع والحديقة والغابة، كل ما احتاج إليه القلم والأوراق فقط".

ينطلق الشاعر مروان علي في تجربته الشعرية من الذاكرة، ويستطرد "غادرنا البلاد بحقائب صغيرة، لذلك تركنا خلفنا أشياء كثيرة. تركت خلفي أهلي وأسرتي وطفولتي وفخاخي وحقول القمح وحصادات الجونديرو وشيركو وأسراب القطا في سماء كرصور. لولا الذاكرة لانتهيت بصراحة. هذه الذاكرة تساعدني كثيرا في البقاء على قيد الحياة والكتابة أيضا. علاقتي بكل ما تركته في كرصور بهذه الذاكرة وهي ليست علاقة عابرة ولا أستطيع أبدا أن أدير لها ظهري".

الوطن الأخير

يقول علي "حين انتقلت وحدي لمتابعة تعليمي الثانوي في القامشلي، اكتشفت عالما آخر؛ بيوتا من الإسمنت تجاور بيوتا طينية وشوارع نظيفة وحدائق وأشجارا، بينما في كرصور كانت هناك شجرة توت واحدة، عالم آخر مختلف".

ويضيف "ما زلت أشعر بتلك الدهشة التي نراها على وجه طفل من قرية كردية بعيدة حين وصل للمرة الأولى إلى القامشلي برفقة أمه المريضة ووالده الذي ينظر نحو الأرض ويرفع رأسه نحو السماء".

و"الذاكرة هي التي توفد لي المادة الأساسية للكتابة، هذه الذاكرة بيتي الذي لا أستطيع مغادرته وتركته في كرصور، كما أن الانتصار لكل ما بقي هناك واجب أخلاقي وإنساني لي على الأقل لأنه يواجه قوة غاشمة للقضاء عليه بسبب هويته الكردية الواضحة مثل جبال كردستان".

حلب قريبة جدا/ لدرجة كلما فتحتُ النافذة / سمعتُ أصوات الناس/ في المنشية القديمة/ وصفير القطار في محطة بغداد/ حلب قريبة جدا/ أنا البعيد.

حلب، كرصور، دمشق، وترحال كثير في مدن شتى، ومع ذلك لم يترك هذا الوطن وراءه. هنا نسأله عن شكل الوطن الذي يحلم به؟ فيجيب "أحلامي بلا حدود. لكن وبكلمة واحدة، يجب أن نطوي صفحة القتل الآن ونشرع في بناء وطن لكل أبنائه. سوريا دولة وهنا أتحدث عنها كبقعة جغرافية لأننا لم نعرف الدولة منذ وصول حزب البعث إلى السلطة. فريدة في تنوعها القومي والثقافي والديني وهي نموذج حقيقي للاختلاف والتعايش، كل ما نحتاج إليه أن تكون هذه البلاد وطنا لكل السوريين، ولا بد من نشر ثقافة التسامح والعمل على تأصيلها في النفوس التي خذلتها الحرب والعالم وإلا لن نستطيع تجاوز هذه المحنة والكارثة التي حلت بنا".

ويتابع "قصائد قليلة كتبتها عن مدينتي القامشلي وقريتي كرصور وكتبت كثيرا عن حلب وحمص ودمشق وحماه واللاذقية. أكتب عن سوريا لأنها الوطن الأخير لي. حين تتحرر كردستان/ سأشتري بيتا صغيرا في حلب".

أحلام كبيرة

كتاب "كيف تصبح كرديا في خمسة أيام" يوميات، يؤرخ من خلالها علي علاقته بالمكان الأول. نسأله إلى أي مدى هو معني بالاشتغال على الذاكرة (ذاكرة البشر والمكان)؟ فيوضح "قلت وأكرر، الانتصار لهذا المكان انتصار للجمال في وجه القبح، وقوف مع الحق في وجه الظلم. لن أنسى الصفعة التي تلقيتها من المعلم في الصف الأول لأنني تحدثت بالكردية مع أخي الأصغر مني راكان، وحين كبرت أدركت أن الكتابة جزء أساسي من معركتي للحفاظ على الأمكنة والبشر الذين تركتهم هناك. منهم تعلمت الكتابة ولهم أكتب".

ويعقب حول كتابه "لن يصبح أحد كرديا بعد قراءة الكتاب وهو دعوة إلى ملامسة الألم الكردي والاقتراب منه ويكشف بطريقة ساخرة أحيانا هوس الكرد بتغيير الحدود والبحث عن آمالهم المحقة وحقوقهم المشروعة وأحلامهم العالية. الأمر الأساسي في الكتاب هاجس البحث عن نص أدبي جديد وشكل جديد للكتابة يمزج بين القصة والقصة القصيرة جدا والمسرح والسينما والشعر".

يتناول كتاب "كيف تصبح كرديا في خمسة أيام" في جزئه الأول قضية الكردي وحقوقه، خيباته وأحلامه. وحول حدود الواقعي والمتخيل في هذا العمل يقول الشاعر "لا أعتقد من وجهة نظري كقارئ أولا أن القارئ يبحث عن الواقعي والمتخيل في أي كتاب بل ربما لا تشغله هذه النقطة بتاتا، القارئ يبحث عن الجديد والمختلف والمتعة والشغف وأشياء أخرى كثيرة".

ويضيف "كيف تصبح كرديا في خمسة أيام كتاب عن الكرد والعرب والسريان والآشوريين والأرمن. كتاب سوري حاولت فيه تقديم عوالم كردية من زاوية جديدة، والبحث عن شكل جديد للكتابة، الكتاب دعوة للقارئ ليكون كرديا ويقترب من آمال وآلام الكرد في هذا العالم الذي يدير ظهره للأكراد وأحلامهم وجبالهم وأغنياتهم. ولأن صرخة الكردي لا تصل ستعود إلى حنجرته".

> العنوان والغلاف من الأشياء المهمة جدا للقارئ، حتى نوعية الورق لأن دور النشر عادة تبحث عن الورق الرخيص

العنوان هو الباب الذي سيدخل منه القارئ ولا بد أن يكون جميلا ومختلفا. العنوان والغلاف من الأشياء المهمة جدا للقارئ، وحتى نوعية الورق لأن دور النشر عادة تبحث عن الورق الرخيص. ربما من نعم هذه الحياة أن ناشري الشاعر والصديق خالد سليمان الناصري، مدير منشورات المتوسط مهووس أيضا بأن يقدّم للقارئ كتابا مختلفا شكلا ومضمونا".

يشير صاحب كتاب "الطريق إلى البيت" إلى أن الكتابة لا تكفيه في التعبير عن مروان الإنسان لذلك يقرأ كثيرا ويشاهد السينما وبدأ في كتابة فيلم قصير وشارك في كتابة فيلم وثائقي قيد الإنجاز. الكتابة، كما يقول، محاولة للتخفيف من آلامه الشخصية على الأقل وخلال فترة الكتابة.

ويضيف "منذ بدايتي تأكد لي عدم جدوى الكتابة. أكتب لأنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء للفقراء والمهمشين والعشاق وحتى المناضلين الذين يقبعون في السجون بحثا عن العدالة والحريّة والكرامة. أكتب فقط لأنقل تلك الأحلام العالية والبعيدة إلى نصوص وقصائد".

ويتابع مروان علي "في مجموعتي الجديدة 'لو أن الحربَ مسرحيةٌ' التي ستصدر بالألمانية عن منشورات 'هانس -شيلر' في برلين، أركز على هذه الفكرة، لا جدوى من الكتابة في عالم يمضي بسرعة نحو الحرب والخراب".

وزارة الثقافة الجزائرية تعاني من العقم

أزراج عمر
كاتب جزائري

شهدت الجزائر مؤخرا حدثين دراميين هزّا المواطنين والمواطنات. يتمثل الحدث الأول في الصرخة المؤلمة المدوية التي أطلقتها الممثلة والمخرجة المسرحية نضال الجزائرية أمام الرأي العام الوطني، حيث طالبت السلطات بإنهاء مسلسل التنكر لحقوقها الاجتماعية والإمعان في تأبيد حشرها في المنزل القصديري والبدائي الذي انهار عليها وعلى أسرتها، أما الحدث الثاني فيتلخص في الآثار المترتبة على تعيين ثم استقالة وزيرة الثقافة مريم مرداسي التي لم تعمّر في منصبها سوى خمسة أشهر يتيمة.

لقد أثار هذان الحدثان كثيرا من اللغط حول الوضع الثقافي والفني المزري في الجزائر، وحول أهلية وكفاءة وزراء الثقافة الذين أقحموا لتولي شؤون الثقافة والفن والفكر في الجزائر المستقلة، وتسبب أغلبهم في طمس الحياة الثقافية والفنية والفكرية، كما لعبوا أدوارا مفصلية في إذلال المثقفين والمبدعين في كافة المجالات.

في هذا السياق ينبغي التذكير بأن الإحصائيات الرسمية تفيد بأن عدد الوزراء الذين أسندت إليهم حقيبة وزارة الثقافة طوال مرحلة استقلال الجزائر إلى يومنا هذا لا يقل عن 20 وزيرا ووزيرة، وتعتبر خليدة تومي التي قضت 12 سنة كاملة في منصبها أكثرهم أقدمية ويليها في الأقدمية مباشرة أحمد طالب الإبراهيمي الذي عمّر 7 سنوات ثم يأتي بعده عزالدين ميهوبي الذي قضى 4 سنوات كوزير للثقافة، دون أن تشهد كل هذه الفترات الزمنية الطويلة جدا أي تحوّل أو تطور نوعي في البنية الثقافية الوطنية وفي المؤسسات ذات الطابع الثقافي والفني، وبالعكس فقد أصبح التنشيط الثقافي الضحل سيد الموقف الأمر الذي جعل الجزائر تغرق في الأزمة الثقافية وفي الانكماش داخل الفضاء الثقافي الدولي.

يمكن أن يفيدنا فحص أسماء وزراء الثقافة الجزائريين والجزائريات الذين تداولوا حقيبة الثقافة بأن أغلب تخصصاتهم الأصلية لا علاقة لها بميدان الإبداع الثقافي والفكري والفني، إذ يندر أن تجد بين هؤلاء من تمرسوا في إنجاز وتجسيد الصناعة الثقافية والتوجيه الفني الجمالي في الجزائر العميقة نظريا أو انخراطا كليا في ممارسة الإبداع الثقافي والفني والفكري، وفضلا عن ذلك فإنهم ليسوا بأصحاب المساهمات المبتكرة في مجال إثراء حقول الثقافة الجزائرية بأعمال متميزة، وهذا يعني أنهم لم يخضعوا للتكوين العميق لكي يكونوا بمثابة الدوافع الحيوية لابتكار عوالم الصناعة الثقافية والفنية الراقية.

مثلا، إن خليدة تومي التي قضت في وزارة الثقافة أطول مدة ذكرناها أعلاه، ينحصر تكوينها في مادة الرياضيات الأولوية التي قامت بتدريسها في التعليم الثانوي وذلك قبل أن تتفرغ لتصبح ناشطة نسوية، ومشاغبة حزبية يتلخص رأسمالها في صرخاتها في المظاهرات ضد النظام الحاكم الذي أصبحت فيما بعد أحد بيادقه البارزين.

وهنا نجد المراقبين لحال الشأن الثقافي الجزائري يتساءلون باستغراب: لماذا لم تسند وزارة الثقافة الجزائرية لمثقفين وأدباء ونقاد وفنانين بارزين لهم إدراك بالعمل الثقافي وحرفة الإنتاج الثقافي والفني والفكري مثل عبدالقادر معلولة، أو مالك بن نبي، أو مالك حداد، أو محمد بجاوي، أو محمد إسياخم، أو لخضر حامينة، وهلم جرّا؟ ثم لماذا يفرض دائما السياسيون الفاشلون والإداريون الجهلاء بدور الثقافة في بناء الإنسان الجديد كأمناء عامين لوزارة الثقافة ويستبعد الأدباء والفنانون والمثقفون المبدعون؟ ثم لماذا نجد معظم المديرين ونواب المديرين المركزيين والمكلفين بالمهام على مستوى وزارة الثقافة الجزائرية لا ينتمون إلى عائلة الثقافة والفن الأصيلة؟ ثم، لماذا يسمح، مثلا، لأشخاص بتولي منصب الإدارة العامة للكتاب وهم أبعد خلق الله عن عالم التأليف والطبع والنشر؟ وكيف يسمح بتعيين هذا الشخص أو ذاك مديرا للمسرح في هذه المحافظة أو تلك وهو لا يمت بصلة تذكر إلى ميدان المسرح؟

> العبث بالشأن الثقافي على المستوى المركزي أو الولائي أو البلدي سمة للسياسات الثقافية العرجاء المنتهجة في الجزائر

وفي الحقيقة، فإن العبث بالشأن الثقافي على المستوى المركزي أو الولائي أو البلدي هو سمة للسياسات الثقافية العرجاء المنتهجة في الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، ويبدو واضحا أن النظام الحاكم في الجزائر يفعل ذلك لأنه يحتقر المثقفين والمبدعين احتقارا لا نظير له، ولقد فرخت مثل هذه السياسات العقيمة كثيرا من الأمراض مثل تجفيف البلاد من الحياة الثقافية والفكرية والفنية وتحطيم سمعة المثقفين والفنانين وإغراقهم في الفقر والتهميش، وتجريد النقابات المهنية والروابط والاتحادات الثقافية والأدبية والفنية من استقلاليتها، وبذلك تمّ تكريس الفراغ الثقافي وتدهور أخلاقيات حماية حقوق الكتّاب والفنانين والمفكرين ومختلف الفاعلين في الحقل الثقافي الوطني، وأكثر من ذلك فإن الجزائر قد حوّلت إلى زنزانة معزولة وعازلة الأمر الذي ما فتئ يكرّس انقطاع المجتمع الجزائري عن التواصل والحوار المبدع مع الإنتاج الثقافي والفكري والفني على المستوى المغاربي، والعربي المشرقي، والأفريقي، والآسيوي والأوروبي/ الغربي معا.

كما ما فتئ يقوّض إمكانية فتح السبل أمام كافة تنوع أشكال التعبير الثقافي والفني والوطني للوصول إلى الشعوب الأخرى للتعريف بها وجعلها جزءا فاعلا ضمن نسيج الثقافة الإقليمية والدولية.

عطالة ثقافية ومثقفون غاضبون (لوحة للفنان سعد يكن)